

لمحات من مُثل الإمام الحسين (ع) / القسم الثاني

<?xml encoding="UTF-8?>



وتجسدت في شخصية أبي الأحرار الإمام الحسين (ع) جميع القيم الانسانية ، والمثل العليا والتقت به عناصر النبوة والإمامة ، فكان بحكم مثله وتهذيبه فذا من أفذاذ التكامل الانساني ، ومثلا رائعا من أمثله الرسالة الاسلامية ، فهو - بحق - الأطروحة الخالدة للاسلام بجميع طاقاته ومقوماته .

إن أية صفة من صفات أبي الشهداء أو نزعة من نزعاته الكريمة لترفعه عاليا على جميع عظماء العالم ، وتدفع إلى القول - بلا مغالاة - أنه نسخة لا ثاني لها في تاريخ البشرية على الإطلاق ما عدا جده وأبيه ، ونعرض - بإيجاز - إلى بعض خصائصه وذاتيته .

6 - الصبر :

من النزعات الفذة التي تفرد بها سيد الشهداء الصبر على نوائب الدنيا ومحن الأيام ، فقد تجرع مرارة الصبر منذ أن كان طفلا ، فرزئ بجده وأمه ، وشاهد الاحداث الرهيبة التي جرت على أبيه ، وما عاناه من المحن والخطوب ، وتجرع مرارة الصبر في عهد أخيه ، وهو ينظر إلى خذلان جيشه له ، وغدرهم به ، حتى أرغم على الصلح ، وبقي معه يشاركه في محنه وآلامه ، حتى اغتاله معاوية بالسم ، ورام أن يوارى جثمانه بجوار جده فمنعته بنو أمية فكان ذلك من أشق المحن عليه .

ومن أعظم الرزايا التي صبر عليها أنه كان يرى انتقاض مبادئ الاسلام ، وما يوضع على لسان جده من الأحاديث المنكرة التي تغير وتبدل شريعة الله ، ومن الدواهي التي عاناها أنه كان يسمع سب أبيه وانتقاضه على كل هذه الرزايا والمصائب .

وتواكبت عليه المحن الشاقة التي تميد بالصبر في يوم العاشر من المحرم فلم يكد ينتهي من محنة حتى تطوف به مجموعة من الرزايا والام ، فكان يقف على الكواكب المشرقة من أبنائه وأهل بيته ، وقد تناهت السيوف والرماح أشلاءهم فيخاطبهم بكل طمأنينة وثبات : " صبرا يا أهل بيتي ، صبرا يا بني عمومتي ، لا رأيتم هوانا بعد

هذا اليوم ” .

وقد بصر شقيقته عقيلة بني هاشم ، وقد أذهلها الخطب ، ومزق الأسى قلبها ، فسارع إليها ، وأمرها بالخلود إلى الصبر والرضا بما قسم الله .

ومن أهوال تلك الكوارث التي صبر الامام عليها أنه كان يرى أطفاله وعياله ، وهم يضجون من ألم الظمأ القاتل ، ويستغيثون به من أليم العطش فكان يأمرهم بالصبر والاستقامة ، ويخبرهم بالعاقبة المشرقة التي يؤل إليها أمرهم بعد هذه المحن الحازبة .

وقد صبر على ملاقة الأعداء الذين ملئت الأرض جموعهم المتدفقة ، وهو وحده يتلقى الضرب والطعن من جميع الجهات ، قد تفتت كبده من العطش وهو غير حافل بذلك كله .

لقد كان صبره وموقفه الصلب يوم الطف من أندر ما عرفته الانسانية يقول الأربلي : ” شجاعة الحسين يضرب بها المثل ، وصبره في الحرب أعجز الأوائل والأواخر ” (10) .

إن أي واحدة من رزاياه لو ابتلى بها أي انسان مهما تدرع بالصبر والعزم وقوة النفس لأوهنت قواه واستسلم للضعف النفسي ، ولكنه (ع) لم يعن بما ابتلي به في سبيل الغاية الشريفة التي سمت بروحه أن تستسلم للجزع أو تضرع للخطوب ، يقول المؤرخون : إنه تفرد بهذه الظاهرة ، فلم توه عزمه الاحداث مهما كانت ، وقد توفي له ولد في حياته فلم ير عليه أثر للكآبة فقليل له في ذلك فقال (ع) :

” إنا أهل بيت نسأل الله فيعطينا ، فإذا أراد ما نكره فيما نحب رضينا ” (11)

لقد رضى بقضاء الله واستسلم لامره ، وهذا هو جوهر الاسلام ومنتهى الايمان .

7 - الحلم :

أما الحلم فهو من أسمى صفات أبي شهداء (ع) ومن أبرز خصائصه فقد كان - فيما أجمع عليه الرواة - لا يقابل مسيئاً بإسأته ، ولا مذنباً بذنبه ، وإنما كان يغدق عليهم ببره ومعروفه شأنه في ذلك شأن جده الرسول (ص) الذي وسع الناس جميعاً بأخلاقه وفضائله ، وقد عرف بهذه الظاهرة وشاعت عنه ، وقد استغلها بعض مواليه فكان يعتمد إلى اقتراف الإساءة إليه لينعم بصلته واحسانه ، ويقول المؤرخون : إن بعض مواليه قد جنى عليه جنائية توجب التأديب فأمر (ع) بتأديبه ، فانبرى العبد قائلاً :

” يا مولاي ، إن الله تعالى يقول : ” الكاظمين الغيظ ” .

فقابله الامام ببسماته الفياضة وقال له : ” خلوا عنه ، فقد كظمت غيظي . . . ” .

وسارع العبد قائلاً : ” والعافين عن الناس ” . ” قد عفوت عنك . . . ” .

وانبرى العبد يطلب المزيد من الاحسان قائلا : " والله يحب المحسنين " .

" أنت حر لوجه الله . . . " .

ثم أمر له بجائزة سنية (12) تغنيه عن الحاجة ومسألة الناس .

لقد كان هذا الخلق العظيم من مقوماته التي لم تنفك عنه ، وظلت ملازمة له طوال حياته .

8 – التواضع :

وجبل الإمام الحسين (ع) على التواضع ومجافاة الأنانية والكبرياء ، وقد ورث هذه الظاهرة من جده الرسول (ص) الذي أقام أصول الفضائل ومعالي الأخلاق في الأرض ، وقد نقل الرواة بوادر كثيرة من سمو أخلاقه وتواضعه نلمع إلى بعضها :

1 – انه اجتاز على مساكين يأكلون في (الصفة) فدعوه إلى الغداء فنزل عن راحلته ، وتغذى معهم ، ثم قال لهم : قد أحببتكم فأجيبوني ، فلبوا كلامه وخفوا معه إلى منزله ، فقال (ع) لزوجته الرباب : اخرجي ما كنت تتدخرين ، فأخرجت ما عندها من نقود فناولها لهم (13) .

2 – مر على فقراء يأكلون كسرا من أموال الصدقة ، فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم ، فجلس معهم ، وقال : لولا أنه صدقة لأكلت معهم ثم دعاهم إلى منزله ، فأطعمهم ، وكساهم ، وأمر لهم بدراهم (14) .

لقد اقتدى (ع) في ذلك بجده الرسول (ص) وسار على هديه فقد كان – فيما يقول المؤرخون – يخالط الفقراء ويجالسهم ، ويفيض عليهم ببره واحسانه ، حتى لا يتبىخ بالفقير فقره ، ولا يبطر الغنى ثراؤه .

3 – وجرت مشادة بين الحسين وأخيه محمد بن الحنفية ، فانصرف محمد إلى داره وكتب إليه رسالة جاء فيها " أما بعد : فان لك شرفا لا أبلغه ، وفضلا لا أدركه ، أبونا علي لا أفضلك فيه ولا تفضلني ، وأمي امرأة من بني حنيفة ، وأمك فاطمة بنت رسول الله (ص) ولو كان ملء الأرض مثل أمي ما وفين بأمك ، فإذا قرأت رقعتي هذه فالبس ردائك ونعليك وسر إلي ، وترضييني ، وإياك أن أكون سابقك إلى الفضل الذي أنت أولى به مني . . . " .

ولما قرأ الحسين رسالة أخيه سارع إليه وترضاه (15) وكان ذلك من معالي أخلاقه وسمو ذاته .

9 – الرأفة والعطف :

ومن صفات أبي الأحرار أنه كان شديد الرأفة بالناس يمد يده لكل ذي حاجة ، ويسعف كل ذي لهفة ، ويجير كل من استجار به ، وقد فزع مروان إليه وإلى أخيه وهو من ألد أعدائهم ، بعد فشل واقعة الجمل ، وطلب منهما أن

يشفعان له عند أبيهما ، فخفا إليه وكلماه في شأنه وقالوا له : " يبايعك يا أمير المؤمنين " .

فقال (ع) : " أولم يبايعني قبل قتل عثمان لا حاجة لي في بيعته انها كف يهودية ، لو بايعني بيده لغدر بسبابته ، أما أن له امرة كلعقة الكلب أنفه ، وهو أبو الأكبش الأربعة ، وستلقى الأمة من ولده يوما أحمر " .

وما زالا يلطفان به حتى عفا عنه ، إلا أن هذا الوغد قد تنكر لهذا المعروف وقابل السبطين بكل ما يملك من وسائل الشر والمكره ، فهو الذي منع جنازة الإمام الحسن أن تدفن بجواز جده ، وهو الذي أشار على الوليد بقتل الإمام الحسين إن امتنع من البيعة ليزيد ، كما أظهر السرور والفرح بمقتل الإمام (ع) وحسب مروان أنه من تلك الشجرة التي لم تثمر إلا الخبيث الدنس وما يضر الناس .

ومن ألوان تلك الصور الخالدة لعطف الامام ورأفته بالناس أنه لما استقبله الحر بجيشه البالغ ألف فارس ، وكان قد أرسل لمناجزته وقتاله فرآه الامام وقد أشرف على الهلاك من شدة العطش فلم تدعه أريحته ولا سمو ذاته أن لا يقوم بانقاذهم ، فأمر (ع) غلمانه وأهل بيته أن يسقوا القوم عن آخرهم ، ويسقوا خيولهم فسقوهم عن آخرهم ، وكان فيهم علي بن الطعان المحاربي الذي اشتد به العطش فلم يدر كيف يشرب فقام (ع) بنفسه فسقاه ، وكانت هذه البادرة من أروع ما سجل في قاموس الانسانية من الشرف والنيل .

10 – الجود والسخاء :

من مزايا الامام أبي الأحرار (ع) الجود والسخاء فقد كان ملاذا للفقراء والمحرومين ، وملجأ لمن جارت عليه الأيام ، وكان يثلج قلوب الوافدين إليه بهباته وعطاياه يقول كمال الدين بن طلحة :

" وقد اشتهر النقل عنه أنه كان يكرم الضيف ، ويمنح الطالب ، ويصل الرحم ، ويسعف السائل ، ويكسو العاري ، ويشبع الجائع ، ويعطي الغارم ويشد من الضعيف ، ويشفق على اليتيم ، ويغنى ذا الحاجة ، وقل أن وصله مال إلا فرقه ، وهذه سجية الجواد وشنشه الكريم ، وسمة ذي السماحة ، وصفة من قد حوى مكارم الأخلاق ، فأفعاله المتلوة شاهدة له بصنعه الكرم ، ناطقة بأنه متصف بمحاسن الشيم . . . " (16) .

ويقول المؤرخون إنه كان يحمل في دجى الليل السهم الجراب يملؤه طعاما ونقودا إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين حتى أثر ذلك في ظهره (17) وكان يحمل إليه المتاع الكثير فلا يقوم حتى يهب عامته ، وقد عرف معاوية فيه هذه الظاهرة فأرسل إليه بهدايا والطف كما أرسل إلى غيره من شخصيات يثرب وأخذ يحدث جلساءه بما يفعله كل واحد منهم بتلك الألفاظ فقال في الحسين :

" أما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فان بقي شئ نحر به الجزور وسقى به اللبن . . . " .

وبعث رقيبا يرى ما يفعله القوم فكان كما أخبر فقال معاوية : " أنا ابن هند ، أنا أعلم بقريش من قريش " (18) .

وعلى أي حال فقد نقل المؤرخون بؤادر كثريرة من ءوء الامام وسخائه نلمع إلى بعضها :
1 - مع أسامة بن زید .

ومرض أسامة بن زید مرضه الءى ءوفى فیه فءءل علیه الامام عاءءا فلما اسءقر به المجلس قال أسامة : وا ءماه .

- ما ءمك ؟ .

- ءینی وهو سءون ألفا .

- هو علی .

- آءشى أن أموء قبل أن یقضى .

- لن ءموء ءءى أقضیها عنك .

وباءر الإمام (ع) فقضاها عنه قبل موته (19) وقء ءض طرفه عن أسامة فقء كان من المءءلفین عن بیعة أبیه ، فلم یءازیه بالمثل وإنما أعءق علیه بالاحسان .
2 - مع ءاربة له :

روى أنس قال : كنت عند الحسین فءءلت علیه ءاربة بیءها طاقة ریحانة فءیته بها ، فقال لها : أنت ءرة لوجه الله ءعالی ، وبهر أنس فانصرف یقول :

- ءاربة ءءیئك بطاقة ریحان ، فءعنقها ؟ !!

- كءا أءبنا الله ، قال ءبارك وءعالی : " وإءا ءییءم بءءیة فءیوا بأءسن منها أو رءوها " ، وكان آءسن منها عءقها (20) وبهءا السءاء والءلق الرفیع ملك قلوب المسلمین وهاموا بءبه وولائه .
3 - مع ءارم :

كان الإمام الحسین (ع) ءالسا فی مسءء ءءه الرسول (ص) وءلك بعء وفاة آءیه الحسن (ع) ، وكان عبء الله بن الزبیر ءالسا فی ناءیه منه كما كان عءبة بن أبی سفیان ءالسا فی ناءیه آءری منه ، فءاء اءرابی علی ناءة فءقلها وءءل المسءء فوقف علی عءبة بن أبی سفیان فسلم علیه فرد علیه السلام ، فقال له الأءرابی :

" انی قءلت ابن عم لی ، وطولبت بالءیه فهل لك أن ءعطینی شیئا ؟ " .

فرفع عءبة إلیه رأسه وقال لءلامه : اءفع إلیه مائة ءرهم ، فقال له الاعرابی : " ما أریء إلا الءیه ءامة " .

فلم یعن به عءبة ، فانصرف الاعرابی آیسا منه ، فالتقى بابن الزبیر فعرض علیه قصءه ، فأمر له بمائءی ءرهم فرءها علیه ، وأقبل نحو الإمام الحسین (ع) فرفع إلیه ءاءءه ، فأمر له بعشرة آلاف ءرهم ، وقال له :

هذه لقضاء ديونك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم أخرى وقال له : هذه تلم بها شعثك وتحسن بها حالك ، وتنفق بها على عيالك ، فاستولت على الأعرابي موجات من السرور واندفع يقول :

طربت وما هاج لي معبق * ولا لي مقام ولا معشق

ولكن طربت لآل الرسول * فلذ لي الشعر والمنطق

هم الأكرمون الأنجبون * نجوم السماء بهم تشرق

سبقت الأنام إلى المكرمات * وأنت الجواد فلا تلحق

أبوك الذي ساد بالمكرمات * فقصر عن سبقه السبق

به فتح الله باب الرشاد * وباب الفساد بكم مغلق (21)

4 – مع اعرابي :

وقصده اعرابي فسلم عليه وسأله حاجته ، وقال : سمعت جدك يقول : إذا سألتهم حاجة فاسألوها من أربعة أما عربي شريف ، أو مولى كريم ، أو حامل القرآن ، أو صاحب وجه صبيح ، فأما العرب فشرفت بجدك ، وأما الكرم فدأبكم وسيرتكم ، وأما القرآن ففي بيوتكم نزل ، وأما الوجه الصبيح فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : إذا أردتم أن تنظروا إلي فانظروا إلى الحسن والحسين .

فقال له الحسين (ع) : ما حاجتك ؟

فكتبها الأعرابي على الأرض ، فقال له الحسين (ع) : سمعت أبي عليا يقول : المعروف بقدر المعرفة فأسألك عن ثلاث مسائل إن أجبت عن واحدة فلك ثلث ما عندي ، وإن أجبت عن اثنين فلك ثلثا ما عندي وإن أجبت عن الثلاث فلك كل ما عندي ، وقد حملت إلي صرة من العراق الأعرابي : سل ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الإمام الحسين : أي الأعمال أفضل ؟

– الايمان بالله .

– ما نجاة العبد من الهلكة ؟ الثقة بالله .

– ما يزين المرء ؟ علم معه حلم .

– فان أخطأه ذلك ؟ مال معه كرم .

– فان أخطأه ذلك ؟ فقر معه صبر .

– فان أخطأه ذلك ؟ صاعقة تنزل من السماء فتحرقه .

فضحك الامام ورمى إليه بالصرة (22) .

5 – مع سائل :

ووفد عليه سائل فقرع الباب وأنشأ يقول :

لم يخب اليوم من رجاك ومن * حرك من خلف بابك الحلقة

أنت ذو الجود أنت معدنه * أبوك قد كان قاتل الفسقة

وكان الامام واقفا يصلي فخف من صلاته ، وخرج إلى الأعرابي فرأى عليه أثر الفاقة ، فرجع ونادى بقنبر فلما مثل عنده قال له : ما تبقى من نفقتنا ؟ قال : مائتا درهم أمرتني بتفرقتها في أهل بيتك ، فقال هاتها فقد أتى من هو أحق بها منهم ، فأخذها ودفعها إلى الأعرابي معتذرا منه وهو ينشد هذه الأبيات :

خذها فاني إليك معتذر * واعلم بأني عليك ذو شفقة

لو كان في سيرنا عصا تمد اذن * كانت سمانا عليك مندفقة

لكن ريب المنون ذو نكد * والكف منا قليلة النفقة

فأخذها الأعرابي شاكرا وداعيا له بالخير ، وانبرى مادحا له :

مطهرون نقيات جيوبهم * تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا

وأنتم أنتم الأعلون عندكم * علم الكتاب وما جاءت به السور

من لم يكن علويا حين تنسبه * فما له في جميع الناس مفتخر (23) .

هذه بعض بوادر كرمه وسخائه وهي تكشف عن مدى تعاطفه وحنوه على الفقراء ، وأنه لم يبيغ أي مكسب سوى ابتغاء مرضاة الله والتماس الاجر في الدار الآخرة . . . وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض نزعاته وصفاته التي بلغ بها ذروة الكمال المطلق ، واحتل بها قلوب المسلمين فهاموا بحبه والولاء له .

عبادته وتقواه :

واتجه الإمام الحسين (ع) بعواطفه ومشاعره نحو الله فقد تفاعلت جميع ذاتياته بحب الله والخوف منه ، ويقول المؤرخون : إنه عمل كل ما يقر به إلى الله فكان كثير الصلاة والصوم والحج والصدقة وأفعال الخير (24) .

ونعرض لبعض ما أثر عنه من عبادته واتجاهه نحو الله :
أ - خوفه من الله

كان الإمام (ع) في طبيعة العارفين بالله ، وكان عظيم الخوف منه شديد الحذر من مخالفته حتى قال له بعض أصحابه : " ما أعظم خوفك من ربك ؟ ! ! "

فقال (ع) : " لا يأمن يوم القيامة الا من خاف الله في الدنيا . . . " (25) .

وكانت هذه سيرة المتقين الذين أضأوا الطريق ، وفتحوا آفاق المعرفة ، ودلّوا على خالق الكون ووهاب الحياة .
ب - كثرة صلاته وصومه :

كان (ع) أكثر أوقاته مشغولا بالصلاة والصوم (26) وكان يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة - كما حدث بذلك ولده زين العابدين - (27)

وكان يختم القرآن الكريم في شهر رمضان (28) وتحدث ابن الزبير عن عبادة الامام فقال : " أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه كثيرا في النهار صومه " (29) .
ج - حجه :

كان الإمام (ع) كثير الحج وقد حج خمسا وعشرين حجة ماشيا على قدميه (30) وكانت نجائبه تقاد بين يديه (31) وكان يمسك الركن الأسود ويناجي الله ويدعو قائلا :

" إلهي أنعمتني فلم تجدني شاكرا ، وابتليتني فلم تجدني صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أدمت الشدة بترك الصبر ، إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم . . . " (32) .

وخرج (ع) معتمرا لبيت الله فمرض في الطريق فبلغ ذلك أباه أمير المؤمنين (ع) وكان في يثرب فخرج في طلبه فأدركه في (السقيا) وهو مريض فقال له :

" يا بني ما تشتكى ؟ " . " أشتكى رأسي " .

فدعا أمير المؤمنين ببدة فنحرها وحلق رأسه ورده إلى المدينة ، فلما أبل من مرضه قفل راجعا إلى مكة واعتمر (33) هذا بعض ما أثر من طاعته وعبادته .

د - صدقاته :

كان (ع) كثير البر والصدقة ، وقد ورث أرضا وأشياء فتصدق بها قبل أن يقبضها (34) وكان يحمل الطعام في

غلس الليل إلى مساكين أهل المدينة (35) لم يبتغ بذلك إلا الاجر من الله ، والتقرب إليه ، وقد ألمعنا - فيما سبق - إلى كثير من ألوان بره واحسانه .

الهوامش

(10) كشف الغمة .

(11) الإصابة 2 / 222 .

(12) الحسين 1 / 117 .

(13) تاريخ ابن عساكر 13 / 54 .

(14) أعيان الشيعة 4 / 110 .

(15) نهاية الإرب 3 / 260 ، الف باء 1 / 467 .

(16) مطالب السؤول (ص 73) .

(17) ريحانة الرسول (ص 71) .

(18) عيون الاخبار 3 / 40 .

(19) أعيان الشيعة 4 / 104 .

(20) الفصول المهمة لابن الصباغ (ص 184) .

(21) عقد الآل في مناقب الآل للبحراني .

(22) فضائل الخمسة من الصحاح الستة 3 / 268 .

(23) تاريخ ابن عساكر 4 / 323 - 324 .

(24) تهذيب الأسماء 1 / 163 .

(25) أعيان الشيعة 4 / 104 ، ريحانة الرسول (ص 85) .

(26) تهذيب الأسماء 1 / 163 ، خطط المقرئ 2 / 285 .

(27) تاريخ اليعقوبي 2 / 219 ، تاريخ ابن الوردي 1 / 173 .

(28) سير أعلام النبلاء 3 / 193 .

(29) تاريخ الطبري 6 / 273 .

(30) تاريخ ابن عساكر 13 / 254 ، سير أعلام النبلاء 3 / 193 مجمع الزوائد 9 / 201 ، تهذيب الأسماء 1 / 163 ، مناقب ابن المغازلي رقم الحديث 64 ، مختصر صفوة الصفوة (ص 62) .

(31) صفوة الصفوة 1 / 321 ، طبقات الشعراني 1 / 23 ، تاريخ ابن عساكر 13 / 54 .

(32) الكواكب الدرية 1 / 58 .

(33) دعائم الاسلام 1 / 395 .

(34) دعائم الاسلام 2 / 337 .

(35) تذكرة الخواص (ص 264) .